الفصل الثالث

مرحلة التأليف

لا نجانب الصواب إذا قلنا : إن الدافع الأول لهذه المرحلة يتمثَّل فيما دار حول القرآن من دراسات كان لها أكبر الأثر في تطوُّر قضايا النقد والبيان ، ومن هنا اختلطت مقاييسُ النقد بالدراسات القرآنية ، واستخدم علماءُ الإعجاز مصطلحاتِ البلاغة في محاولةٍ لاستكشاف جوانب العظمة والإعجاز في الأسلوب القرآني مقارنًا بأساليب الشعر والنثر ، دون نظر إلى الفارق الفني بين الشعر والنثر من حيثُ الخواصّ البنائية والتعبيرية ، ودون نظر إلى كتاب منزَّل من السماء ، وأدب أبدعه أهل الأرض .

وربما كان من نِتاج ذلك ما قدمه الفرّاء في « معاني القرآن » من طرق التعبير التي تعتمد على ما في هذه الطرق من خواصَّ تركيبية ، كالتقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، والمعاني التي تخرج إليها بعض الأدوات ، كأدوات الاستفهام ، وبعض الصور البيانية ، كالتشبيه والاستعارة .

ويكمل أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى هذا الطريق في « مجاز القرآن » باعتباره وسيلة إلى فهم المعاني القرآنية ، سواء قلنا : إنه يقصد المجاز بمعناه البلاغي المقابل للحقيقة ، أو قلنا : إنه المجاز بمعنى العبور إلى المعنى المقصود .

وعلى نحو ما كان عند اليونان القدماء نجد طائفة المتكلِّمين تتَّصِل بالبحث البياني ، محاوِلة الإفادة منه فيما يقصدون إليه في مجال الخطابة